- ١ -

قبل أن يشرق النور

ساد العالم قبل الإسلام فلسفات لا يمكن أن ترسم طريقا واضحا للإنسان . ولا تحدد له أهدافه . . ولا تبين له ما ينبغى أن يكون عليه سلوكه فى المجتمع . . كانت فلسفات قاصرة لا يمكن أن تبنى الإنسان وتبنى الحياة.

وكانت هناك ديانات سماوية كاليهودية والمسيحية ولكن كلتا الديانتين حرفتا . . حرف اليهود التوراة . . واعتنق المسيحيون التثليث . . وبعدت بذلك عن التوحيد . . وأصبح الله ثالث ثلاثة . . كما انتشرت المانوية والمزدكية فى فارس، وهما مذهبان يجيزان اللذة والاستغراق فى الجنس.

عالم يسوده الفساد والإفساد . . وعدم وضوح الرؤية لحياة أكثر نضجا وسلامة وفهما للحياة وما وراء الحياة.

ولنقف عند الجزيرة العربية حيث خرج منها نور رسالة الإسلام . . ونرى كيف تأثرت بأحداث العالم، وكيف تأثر العالم بما يجد فيها من أحداث. .

والجزيرة العربية. . بموقعها الجغرافى كانت قريبة من حضارات مزدهرة. . الحضارة المصرية القديمة . . والحضارة البابلية . . ثم الرسالات التى خرجت من الشام. .

فالقسم الجنوبى منها وهو اليمن، والقسم الشمالى الذى يقترب من حدود الشام . . اقترب من حضارات العالم وتأثر به . . فكان أكثر حضارة من الأطراف الوسطى من الصحراء . . التى تشمل نجد والحجاز . . حيث ابتعدت هذه الأجزاء عن الحضارات القريبة منها . . نظراً لأنها وسط صحراء

جافة قاحلة لا زرع فيها ولا نبات . . وكان من الصعب على القوى المسيطرة على العالم فى هذا الزمان المغامرة بالدخول إليها . . لأنه لن يكون هناك عائد مادى من غزو هذه البلاد، بجانب المخاطر التى يمكن أن يتعرض لها من تسول له نفسه السيطرة على تلك البلاد القاحلة. . بما فى ذلك أيضا وعورة الطرق . . وقحط الحياة.

بينما نرى اليمن قد اتصلت بالحضارة المجاورة لقربها من الحبشة . . كما اتصلت أيضا بالهند، والعراق . . والشام . . كما أيضا اتصل شمال الجزيرة العربية بهذه الحضارات من خلال احتكاكهم بالفرس والرومان . . ومن المعروف أن اليمن ازدهرت بها حضارة عريقة نظرا لخصوبة أرضها . . فعاشت فى رخاء، إلى أن حدثت كارثة انهيار سد مأرب، فتفرق سكانها فى أنحاء شبه الجزيرة العربية، وذهب بعضهم إلى يثرب وهما (الأوس والخزرج). . واستوطن بعضهم فى الشمال وهم الغساسنة، بينما توجه المناذرة إلى الشرق. . ولكن وسط الجزيرة كما قلنا كان يعيش فى فقر وفاقة . . وكانت أكثر هذه الأمكنة تحضرا هى مكة . . لأنها بجوار بيت الله الحرام.

فكان يفد إليها الحجاج من كل أنحاء شبه الجزيرة . . فكان احتكاكهم بمختلف القبائل دافعا لهم إلى معرفة الكثير من عادات العرب وتقاليدهم وأنسابهم أيضا . . وكان لاشتغال أهل مكة بالتجارة، بجانب أنها طريق للقوافل بين الذاهبين إلى اليمن جنوبا، أو المسافرين إلى الشام شمالا . . كل ذلك كان وسيلة لجعلهم أكثر تحضرا عن بقية سكان وسط شبه الجزيرة العربية. . وهذه الحضارة جعلت لهم قيما يتعارفون عليها منها :نصرة المظلوم، والوقوف بجانبه ضد الظالم . . والذود عن الشرف، ومعارضة السرقة. . وتأمين قوافل التجارة. . كل ذلك تمثل فيما سموه حلف الفضول، والذى أشاد به النبى عليه الصلاة والسلام عندما جاءته الرسالة بقوله:

– لقد شاهدت فى دار ابن جدعان حلفا لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت.

وكان الرسول قد شاهد ميلاد هذا الحلف فى صباه.

وكان من الطبيعى أن تتأثر هذه المنطقة من العالم بما حولها من عبادات وأفكار . . غير أن الوثنية اتخذت لها من مكة بالذات مقرا، فامتلأ بيت الله الحرام بالأوثان . . بجانب انتشار الوثنية فى مختلف مناطق شبه الجزيرة . . فإذا بكل قبيلة تعبد صنما . . وبلغ من تغلغل هذه العبادة فى نفوسهم، أنهم كانوا يأخذون معهم فى أسفارهم هذه الأصنام تبركا بها.

أما سبب انتشار الوثنية فى بلاد العرب، فترجع إلى أن عمر بن لحى . . وكان ذلك فى عهد العماليق . . خرج إلى تواب فى أرض البلقاء . . ووجدهم يعبدون الأصنام، فنقلها إلى بلاده . . ويقال انه هو الذى نقل إلى بيت الله الحرام «هبل» . . وهو مصنوع من العقيق. وكان على شكل إنسان، وقد كسرت إحدى ذراعيه، فصنع له أهل مكة ذراعا من الذهب الخالص.

وكان من الأصنام الشهيرة عند العرب، «اللات» التى كان يعبدها أهل ثقيف . . وكان على صورة أنثى وكانت تزين بالذهب والجواهر . .

وهناك أيضا من الأوثان الشهيرة (العزى) وهى بنخلة بين الطائف ومكة . .

وتسللت عبادات الأوثان إلى الجزيرة العربية . . وتغلغلت فى النفوس، وإن كان العرب بينهم وبين أنفسهم مازالت فى أعماقهم دعوة إبراهيم الخليل الذى أقام القواعد من البيت . . فهم يعظمون البيت، ويحجون إليه، ويعتقدون بالله . . ولكنهم اتخذوا من هذه الأصنام وسيلة تقربهم إلى الله !

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣].

. . وإذا كانت هذه العبادات الوثنية قد تغلغلت فى أعماق الناس من هذه المنطقة من وسط شبه الجزيرة، فقد تسللت إلى الشمال والجنوب منها العبادات الأخرى كاليهودية والنصرانية.

فاليهودية دخلت الجزيرة العربية، بعد أن هرب عدد من اليهود إليها أعقاب بطش (تيتوس) بهم، وتشريدهم وتصميمه على ألا يعيش يهودى واحد فى فلسطين وكان تيتوس هذا قد حطم الهيكل فى عام ٧٠ ميلادية..

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يهدم فيها الرومان الهيكل .. فقد هدم قبل ذلك على أيديهم مرتين .. ومن هنا فقد هربوا إلى شبه الجزيرة .. وخاصة فى الجنوب .. وقد قام عداء بينهم وبين المسيحيين حتى أن ذا نواس الذى حكم اليمن وكان يمقت المسيحيين مقتا شديدا .. ويقال انه هو صاحب المذبحة التى حدثت فى نجران، عندما أقام أخدودا، وأحرق فيه المسيحيين، والتى صورها القرآن الكريم:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ [البروج: ٤ - ٧].

وكما قام نزاع بين اليهود والمسيحيين فى فلسطين. فقد قام هذا النزاع أيضا بينهما فى الجزيرة العربية .. وقد انتشر اليهود أيضا فى يثرب، وخيبر، ويقال أن ذلك حدث أيضا عندما نزحوا من هذه الأماكن الخفية، عقب هدم سد مأرب.. وكانوا يتباهون على العرب بأنهم أهل ديانة سماوية .. وإنهم هم المختصون بها، وإنهم فوق الناس جميعا. كما إنهم كثيرا ما أشعلوا نار الخلاف بين قبائل الأوس والخزرج.

وإذا كانت اليهودية لم تنتشر بصورة جادة لانغلاقها على نفسها كما قلنا فإن الديانة المسيحية هى الأخرى عجزت عن الدخول إلى قلب نجد .. لما فيها من تعقيدات حول طبيعة المسيح .. وحول الثالوث .. وما جرت عليه من خلافات كثيرة بين المسيحيين أنفسهم .. ولم يكن فى استطاعة العقل العربى البسيط أن يدخل نفسه فى متاهات هذا الجدل، ولا هو مستعد بحكم تكوينه، ومحافظته على ما كان عليه الآباء والآجداد من عبادات من قبوله بسهولة، فظل هذا الدين بعيدا عن قلب الجزيرة العربية، وان وجد له أنصار

فى الجنوب فى نجران ثم انتشر فى اليمن عندما استولى عليها الأحباش بأمر من الامبراطور الرومانى جستين الأول .. والذى كان يعتبر نفسه المسئول عن المسيحيين فى العالم، فأراد أن يتخلص من ذى نواس الذى كان يكره المسيحيين وينكل بهم .. وكانت الحبشة خاضعة للحكم الرومانى، ومن هنا فقد توجه جيش حبشى ضخم بقيادة ارياط لليمن واحتلها .. وقضى على حكم ذى نواس، ثم نزل أبرهة وتولى أمور البلاد، وهو الذى أقام الكنيسة الضخمة فى اليمن، والذى أطلق عليها (القليس) .. والذى أراد ببنائها أن يصرف العرب عن تقديس الكعبة .. وأن يتجهوا إليها .. ولكن العرب بحكم تكوينهم رفضوا هذا .. فهم يقدسون أصنامهم، ويرون أن الاعتداء عليها هو اعتداء على تراث آبائهم وأجدادهم .. وأن هذا أيضا يضعف من مكانة مكة بين القبائل .. وما كان من أبرهة إلا أن هاجم مكة بجيش كبير فيه عدد من الفيلة .. وكان هذا الهجوم فى العام الذى ولد فيه رسول الله ﷺ ..

وفشلت «حملة الفيل» .. عندما تحرك أهل مكة إلى قمم الجبال، وطلب عبد المطلب زعيمهم أبرهة .. أن يرد إليه إبله التى سلبها جيشه أما البيت فله رب يحميه .. وهلك جيش أبرهة .. وقد صور القرآن الكريم بأسلوبه المعجز .. هذه الغزوة بكلمات قليلة .. هى سورة الفيل..

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ١ - ٥].

وبجانب هاتين الديانتين، كانت هناك ديانات أخرى، ولكن لا يدين بها إلا عدد قليل جدا من الناس كالصابئة. والصابئون كانوا يعبدون الكواكب .. وكان هناك من يعبد الجن.

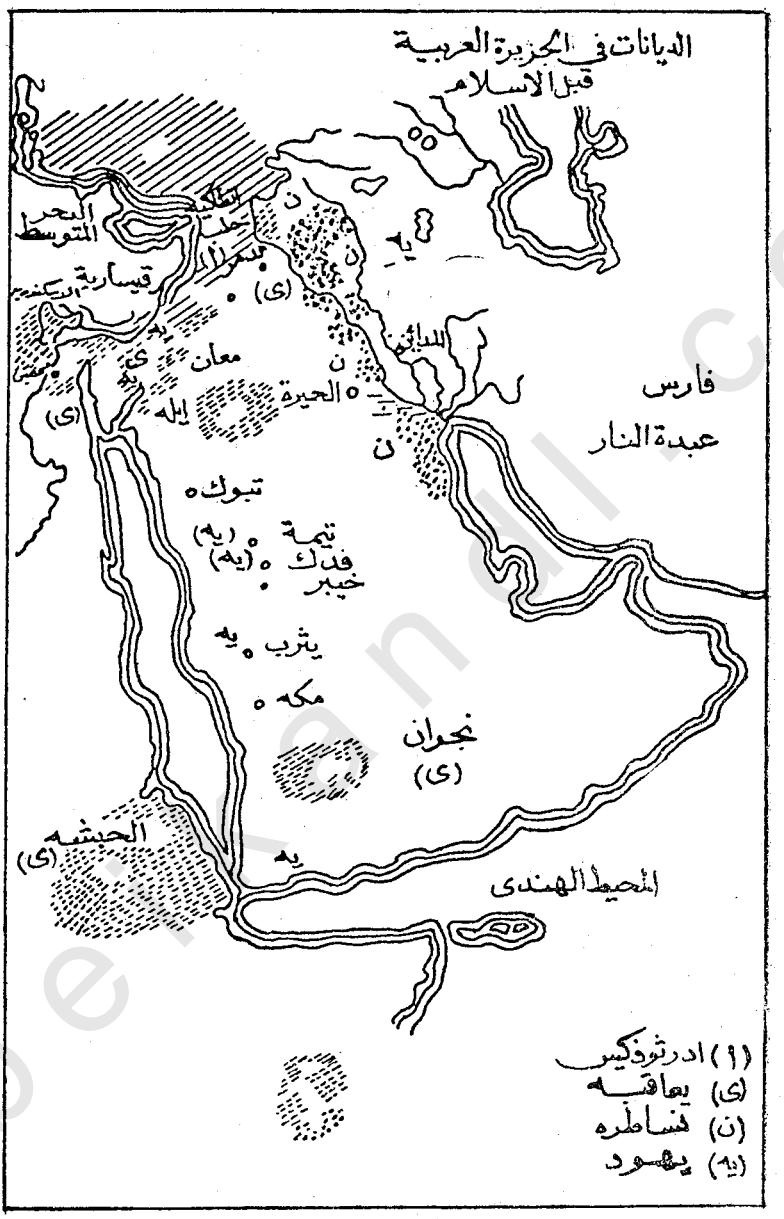
الديانات في الجزيرة العربية
قبل الاسلام
البحر
المتوسط
قيسارية
معان
ايله
الحيرة
فارس
عبدة النار
تبوك
تيمة
فدك
خيبر
يثرب
مكه
نجران
الحبشه
المحيط الهندى
(ا) ادرنوذكيس
(ى) يعاقبه
(ن) نساطره
(يه) يهود

وكان هناك أيضا طائفة الحنفاء . . وهم الذين فكروا بعقولهم، ووجدوا أن عبادة الأوثان ضلال وخرافة، وأن عليهم أن يعودوا إلى دين إبراهيم الخليل. . فالأصنام لا تجدى نفعا، ولا تضر أيضا. . وكان من هؤلاء الحنفاء ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة، والذى قصت عليه السيدة خديجة قصة الوحى عندما نزل على النبى عليه الصلاة والسلام، وقال لها: إنه الناموس الذى أنزله الله على موسى وعيسى عليهما السلام. .

. . وكذلك كان على الحنفية زيد بن عمرو بن نوفل. . وهو الذى كان يقول فى قريش:

ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى.

وكان الشاعر أمية بن الصلت هو الآخر نصرانيا وكان يتمنى أن يكون هو النبى المنتظر، ولما علم أن الرسالة جاءت إلى محمد بن عبد الله حقد عليه حقداً شديداً، وقد قال عنه الرسول الكريم:

- «آمن شعره وكفر قلبه» . .

الصورة العامة إذن على المستوى العالمى كانت صورة قاتمة . . الحياة فى ظلها فى غاية الصعوبة . . الحكام يحكمون بالبطش والجبروت . . والشعوب قابعة تحت نير هؤلاء الحكام . . خاضعين على كره مذعنين فى استسلام لجلاديهم . . فهم عبيد حكامهم. .

ويكفى أن نعرف إلى أى مدى كان إهدار كرامة الإنسان . . ان المرأة فى ظل القانون الرومانى إذا قتلها زوجها فلا عقاب له. .

وأن المرأة كان يمكن أن يتزوجها ابنها أو أخوها فى ظل القانون الفارسى. . وبهذا ضاعت الأنساب، وتفككت الأواصر الأسرية، وأصبحت الفوضى الاجتماعية هى سمة الحياة فى تلك العصور. .

بشائر مولد الرسول

كانت الحياة إذن فى حاجة إلى نبى يعيد للإنسانية فهمها الصحيح للدين.. والعلاقة بين الله والإنسان .. أى كان لابد من نبى يصحح مسار الحياة، ويرسم طريقا واضحا لما ينبغى أن تكون عليه الحياة من عقيدة وشريعة، وكان المكان الذى نبتت فيه هذه الرسالة .. هو مكة..

وكان الزمان هو القرن السادس الميلادى..

وكان الرسول هو محمد بن عبد الله..

وما أكثر ما قيل عن البشارات فى مختلف الأديان التى تبشر بالنبى المنتظر.. فقد بشرت به الزرادشتية.. وبشرت به التوراة، وبشر به الإنجيل.. ومن هنا فقد تبرز علامة استفهام حول الزرادشتية، وهل يقبل منها هذه البشارة.. التى تنبئ بنبى يخرج من أرض العرب، فيسود بلاد الفرس، وتنشر دعوته فى كل اتجاه.

وهذه البشارة تقول:

- «إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم، يضعفون وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم أتباعه فارس .. ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون نحو كعبة إبراهيم التى تطهرت من الأصنام.. ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ، وأن نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث .. بالمعجزات»..

وطبعا هذا الكلام قد تحقق .. فقد خرج من بين العرب النبى الخاتم، الذى استطاع أتباعه أن يهزموا الفرس، ويدخلوا بلادهم، ويرفعوا راية الإسلام وينشروا نوره .. وذلك عقب وفاة الرسول الكريم مباشرة ..

فهل يمكن أن نقول أن هذه النبوءة التى وردت عن الزرادشتية تثير علامة استفهام لأنها صدرت عن ديانة غير سماوية؟!

والواقع أنه لا يستبعد أن تكون الزرادشتية فى أصلها قبل تحريفها ديانة سماوية .. وخاصة أن القرآن يذكر لنا صراحة أن هناك رسلا لم يقصصهم علينا..

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨].

ويذكر لنا الأستاذ العقاد فى كتابه (معالم النور) عن جماعة الأحمدية الهندية ونبوءاتهم بقوله:

«ومن الجماعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن إلى اللغة الانجليزية، فإنها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه الصلاة والسلام بحثا مستفيضا فى مقدمة الترجمة، قالت فيه نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء، وهى التجلى فى سيناء وقد حصل فى زمانه، والتجلى فى سعير أو جبل أشقر، وقد تجلى فى زمن السيد المسيح، لأن أهل هذا الجبل، على قول الجماعة الأحمدية واقع حيث يقوم أولاد يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشعر.. وأما التجلى الثالث فمن أرض فاران، وهى أرض التلال بين المدينة ومكة.. وقد جاء فى كتاب فصل الخطاب أن الأطفال يحبون، الحجاج فى تلك الأراضى بالرياض من برية فاران.. وقد أصبح أبناء إسماعيل أمة كبيرة كما جاء فى وعد إبراهيم .. فلا يسعهم شريط فى الأرض على تخوم كنعان، ولا وجه لإقامتهم، حيث أقام العرب المنتسبون إلى إسماعيل، ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب والرجوع به إلى جارية مطرودة من بيت سيدها..

.. وأيا كان من أمر هذه البشارات .. فإن هذه التيارات سواء التى وردت فى التوراة أو الإنجيل، قد ذكرها القرآن الكريم، بأسلوبه المعجز بقوله:

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٦ - ١٥٧].

وهذا الكلام لا نسوقه لنبرهن به على صدق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وإن الديانات السابقة عليه قد بشرت به .. فهو صادق وأمين .. ودعوته فيها من الصدق والقوة والبيان ما يجعلها غنية عن كل وسيلة لتصديقها من خلال البشارات ..

فما أكثر ما قيل عن البشارات قبل الرسول ..

ولكننا نشير إلى ذلك مجرد إشارة إصبع من بعيد .. أما الرسالة نفسها فهى رسالة كاملة فيها من العقائد والتشريع ما يجعلها كالشمس لا ينكر نورها إلا مكابر .. مريض العقل، سقيم الوجدان..

ولقد سقنا بعض هذه التيارات فقط ليعرف الذين أنكروا رسالته من كلتا الديانتين .. إنهم كانوا ينكرون النور وسط النهار .. وأن الرسول الكريم نفسه كان يخاطب أهل الكتاب .. بكل الوضوح والمنطق والموضوعية:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة:١٩].

وكان هذا البشير النذير.. هو محمد بن عبد الله الذى قال عن نفسه كما روى ذلك ابن عباس:

- «لم يزل الله عز وجل ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة صفيا مهذبا، لا تنشعب شعبتين إلا كنت فى خيرهما..».

وقوله عليه الصلاة والسلام:

- «ان الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم»..

ثم كان أروع تشبيه، شبه به النبى عليه الصلاة والسلام دعوته، ومكانتها من مختلف الديانات والرسالات:

- «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»..

ثم يبلور الرسول العظيم، تلك الإرادة التى لا تعرف أنصاف الحلول.. على تبليغ رسالة السماء إلى الأرض.. دون أن ينسى أنه نبى بشر.. وبتصميم يرتفع إلى أعلى مناسيب القوة والإرادة:

- «بعثت إلى الناس كافة، فإن لم يستجيبوا لى فإلى العرب.. فإن لم يستجيبوا لى فإلى قريش.. فإن لم يستجيبوا لى.. فإلى بنى هاشم.. فإن لم يستجيبوا لى، فإلىّ وحدى»..

ومن هنا فقد أخذت الحياة الإنسانية كلها مسارا جديدا، بمولد النور.. بمولد الرسالة المحمدية.. وتغيرت مسيرة التاريخ الإنسانى كله، بما تركته دعوته عليه الصلاة والسلام من تأثير بالغ الأهمية على مسيرة كل الأجيال.. ولا تزال حتى اليوم والغد.. وإلى أن تطوى صفحة الحياة.. بإرادة الله.. تؤدى رسالته عليه الصلاة والسلام دورها فى ترشيد الحياة، واستعادة وعيها وتعمق فكرها.. والأخذ بيدها نحو كل ما هو جليل وعظيم ومفيد..

الطفولة: فى ديار بنى سعد

مرت طفولة النبى عليه الصلاة والسلام . . لا كما تمر أى طفولة سعيدة فى كنف حنان الأم ورعاية الأب . . ولكنها طفولة فيها تلك المعاناة التى رسمت خطوطها على حياته فيما بعد . . فقد جاء إلى الحياة، ولم ير له والدا . . فقد مات والده وهو مازال جنينا فى بطن أمه . . ووجدت فيه الأم الحنان الذى عوضها زوجها الشاب الذى مات فى يثرب عند أخوال جده من بنى النجار . .

وذهب فى الطفولة المبكرة مع حليمة السعدية فى ديار بنى سعد . . ليشب فى جو الصحراء النقى بعيدا عن الأوبئة التى كانت تجتاح مكة . . وهناك فى هذه البيئة الصحراوية . . وجد الطفل نفسه مع حليمة وزوجها الحارث بن عبد العزى . . يحدبان عليه، ويحبانه حبا جما . . فقد شاهدت ديارهما الخيرات، وبارك الله لهما فى الرزق . . حتى أن حليمة قالت: «لقد قدمنا منازلنا من بنى سعد، ولا أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت والله، غنمى تروح على حين قدمنا فيه معنا - شباعا لبنا، فنحلب ونشرب منها. حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعا لبنا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير».

إن حليمة وزوجها يعيشان فى رغد من العيش، ويشعران أن هذه النعمة بفضل هذا اليتيم، الذى جاءت به إلى البادية، عندما لم تجد غيره من أهل الثراء. . كما فعلت أندادها من المرضعات، ولكن مشيئة الله جعلتها تعيش فى بحبوحة من العيش بعدما كانت تعيش فيه من الفاقة . . فأغنامها تدر اللبن الوفير . . وأرضها تمتلئ بالأعشاب . . والحياة تسير رخاءً . . وهما سعيدان بهذا الطفل اليتيم من بنى هاشم . .

وعاش الصغير عامين فى ديار بنى سعد .. حتى عزف عن الرضاع، وأرادت حليمة أن تعود به إلى أمه، ويبدو أنه كان ينتشر وباء فى مكة.. فقد طلبت حليمة من أمه آمنة أن ترجع به إلى البادية مرة ثانية، بعد أن قرت عين الأم برؤية وحيدها .. إن حليمة قد أحبت الصغير حبا جارفا .. وأرادت أن تستبقيه معها .. فقد رأت على يديه الحياة هانئة لا تضن عليها بشئ .. وأمام خوف الأم العظيمة على الابن أن يصيبه ما تكره، وافقت على أن يعود الصغير إلى البادية .. ففى البادية كان الطفل ينمو بسرعة.. وكان شديد التأمل فى مظاهر الكون من حوله .. عندما يخلو إلى نفسه .. وكثيرا ما كان يلعب مع أخويه من الرضاعة عبد الله والشيماء، وكانت لعبته المفضلة أن يرمى بعظمة فى ظلام الليل، ومن يجد العظمة يكون الرئيس، وكان محمد دائما هو الذى يرمى العظمة ويصل إليها وسط ظلام الليل .. ولكن كثرة تأمل الصغير، وما رويت عنه من حكايات جعل حليمة تخشى عليه أن يصيبه مكروه، فأخذته إلى جده ..

كان فى الرابعة من عمره .. وكان الموسم موسم الحج .. وكان عدد كبير من الحجاج يتجه صوب مكة .. وتاه محمد وسط الحجيج، وانخلع قلب حليمة، وذهبت إلى جده تحدثه عما حدث، وامتطى جده فرسه، وذهب من خلفه ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) يبحثون عن محمد .. وكان الصغير متوقد الذكاء .. فقد شعر أنه وحيد، وأن حليمة ليست بجواره، فانطلق إلى شجرة وجلس تحتها، حتى يأتى من يأخذه إلى جده، وعثر عليه ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو، وحملاه إلى جده عبد المطلب .. وكم كانت سعادة الجد، وكم كانت سعادة الأم وهى تحتضن وليدها الوحيد .. الذى ترى من خلاله الحياة..

وقررت آمنة أن تأخذ ابنها لزيارة قبر والده، وترى أخوال جده من بنى النجار.. وذهبت معه أمته بركة أم أيمن .. وكانت تحب محمدا حبا جما :.

وفى الطريق كان محمد دائم التأمل فيما حوله من مظاهر الحياة . . النجوم فى كبد السماء . . والطبيعة فى صمتها . . والأصنام التى يعبدها ويقدسها مختلف العشائر والقبائل . . وكان يتأمل فى كل ذلك ويسأل أمه عنها . . وعرف من أمه أيضا قصة زواجها من والده عبد الله، وكيف فداه جده عبد المطلب بمائة من الأبل، فقد كان الجد قد نذر إن رزقه الله عشرة من الأبناء أن يذبح الأخير، وكان عبد الله هو الفداء. . وكان أحب الأبناء إلى قلبه. . واقترح عليه البعض أن يفدى ابنه. . وكان الفداء هو مائة من الأبل.

الرحلة من مكة إلى المدينة

وفى المدينة . . فى يثرب . . شاهد محمد الكثير من هذه المدينة البعيدة عن مكة . . كانت تختلف عن مكة أم القرى . . إن بها حدائق . . وبها جداول ماء. . وهنا تعلم السباحة فى تلك السن الصغيرة، كما شاهد حصون اليهود، وشاهد أيضا الصراع الدائر بين قبيلتى الأوس والخزرج. . وهذه الرحلة ظلت عالقة فى ذهنه طوال حياته، حتى روى عنه قوله بعد الرسالة:

- «كنت مع غلمان من أخوالى نطير طائرا يقع عليه».

ويقصد بذلك الدار التى نزل بها والتى يمتلكها بنى النجار. .

وقال عنها أيضا:

- «ها هنا نزلت بى أمى، وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله بن عبد المطلب».

وأثناء العودة شعر الصغير وأمه فى الطريق إلى أم القرى بالتعب وكان يبدو على وجهها الأعياء الشديد . . وكان قلبه يذوب حزنا على أمه، وهو يراها تحتضن أحب الناس إلى قلبها . . وكأنه كان يحس أن أمه سوف تودع الحياة، فكان دائم النظر إليها وهو يحتضنها، ويتأمل الحنان الخالد وهو يذبل.

وماتت الطاهرة عند (الأبواء) ..حيث دفنت وحيث نزع من حضنها محمد الذى فقد بفقدها حنان الأم العظيم .. وانتزعوه من فوق ثراها، وهو يبكى بأحر الدموع، وحاضنته أم أيمن، تحاول أن تخفف عنه وقع المأساة بلا جدوى .. ويسير الركب الحزين .. بلا أمه الغالية .. إلى مكة .. وينخلع قلب عبد المطلب وهو يشاهد حفيده فى حزنه الصامت البليغ..

هذا المشهد الباكى الحزين لم ينسه النبى طوال عمره .. وعندما امتدت به أيام الحياة .. زار قبر أمه فبكى وأبكى..

وكان محمد فى السادسة من عمره عندما تركته أمه وحيدا فى الحياة، فى رعاية جده عبد المطلب وحاضنته أم أيمن بركة الحبشية .. وقد قربه جده إليه حتى انه كان يجرى نحوه وهو جالس فى مجلسه بالقرب من الكعبة، وكلما حاول أعمامه أن يبعدوه عن مجلس جده، كان يأخذه جده ليجلسه فى فراشه وهو يقول:

- دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا، ثم يجلسه معه على فراشه..

وروى ابن كثير أنه كان يتنبأ لحفيده بأنه سيكون له مركزاً مرموقاً، وأنه قال عنه:

- «دعوا ابنى .. انه يؤسس ملكا»..

ربما كان يعتقد ذلك لما فى هيئة الطفل الصغير من مخايل الذكاء.. وما تنم عنه طفولته وما ستكون عليه شخصيته من القوة فى مستقبل الأيام، وربما إلهام من الله أن يرق له قلب الجد، ويحدب عليه هذا الحدب العظيم الذى عوضه فقدان الوالدين.

ويمضى عامان.. ويودع الجد الحياة.. فيكفله عمه أبو طالب.. ويرعى الغنم صغيرا .. انه هنا فى مهنة الأنبياء تلك .. لأنه ما من نبى إلا ورعى الغنم على حد تعبير النبى عليه الصلاة والسلام .. وفى مهنته تلك تعلم

الصبر ومعايشة الطبقات الكادحة . . فزادت خبرته بالحياة، كما أنه أصبح يعتمد على نفسه حتى لا يصبح عالة على أحد . .

لقد مضت أيام الطفولة . . اقترب إلى سن المراهقة . . وهو فى هذه السن لم يله كما يلهو الشباب . . ولا نازعته نفسه أن يتجه إلى ملاهى القوم وعبث أترابه . . ولكنه كان كثير التأمل . . كثير التفكير فيما يعيش فيه قومه من عادات وتقاليد . . ولم يسجد لصنم قط، ولكنه كان يشعر بالاشمئزاز وهو يرى الناس تعبد أصناما لا تنفع ولا تضر . . وفى الثانية عشرة من عمره يسافر مع عمه للتجارة فى الشام لقد أصر محمد أن يصاحب عمه فى رحلته تلك . . إنه يحب الأسفار . .

إنها فرصة ليعود إلى نفسه يتأملها، ويتأمل ما حوله من كائنات . . ويتأمل الكون وما فيه . . ويشاهد عادات الناس وتقاليدهم وأنماط حياتهم . . إنه ينفذ بخياله إلى ما وراء المحسوسات . .وتكاد روحه أن تخترق حجب المادة إلى المطلق . . إلى الخالق العظيم . .

لا معنى لما يراه من عادات مهترئة لا تحدد للحياة هدفا . .

ولا معنى للسجود حول آلهة من صنع البشر . .

ولا معنى لما يراه من تفشى الرذيلة متمثلة فى أصحاب الرايات الحمر . . اللاتى يعشن من بيع أجسادهن . .

ولا معنى لهذا التفاوت الكبير بين الذين يملكون والذين لا يملكون . .

ولا معنى لوأد البنات بلا جريرة، إلا خوف الفقر والعار . .

ولا معنى . . ولا معنى . . أشياء كثيرة كان ينكرها محمد ولا يستسيغها فى مجتمع مكة . . وهو يريد أن يعرف . .

وفى الأسفار يتعلم الكثير من أمور الحياة . .

وأخذه عمه معه فى رحلته إلى الشام وكان مازال فى الثانية عشرة من عمره . .

لقاء محمد والراهب

وفى الطريق إلى الشام .. وعند قرية الكفر بالقرب من بصرى يلتقى الراهب بحيرا الذى يرى ظواهر عجيبة، تصاحب القافلة.. وأن سحابة تغطى محمدا .. ويدعوهم إلى الطعام، ويدور حوار بين الراهب وبين عمه..

- ما هذا الغلام منك ؟

- انه ابنى ..

- ما هو بابنك .. ولا ينبغى أن يكون أبوه حيا..

- إنه ابن أخى..

- أين أبوه..

- مات وأمه حبلى به..

- صدقت..

- وأين أمه..

- توفيت قريبا..

- صدقت .. ارجع بابن أخيك واحذر عليه اليهود لأن له شأنا عظيما.. أسرع به إلى مكة..

ولم تكن هذه هى الرحلة الأولى التى يخرج فيها محمد خارج مكة، فقد سبق أن سافر مع عمه الزبير إلى اليمن..

وقول الرواة عن رحلته فى اليمن هذا المشهد الذى لا ينسى .. يوم هاج فحل من الإبل .. وثار ثورة عارمة، وتوقفت القافلة عن السير .. ولم يجرؤ أحد على التقدم نحو هذا الفحل الهائج.. ولكن الصبى الصغير محمد ابن عبد الله يتقدم بهدوء وشجاعة منقطعة النظير، يتقدم نحو الفحل الثائر،

ويربت على بطنه بيده الصغيرة بحنان شديد.. وإذا بالفحل الهائج يهدأ.. ثم يبرك على الأرض، ويركبه محمد، وتسير القافلة فى طريقها نحو اليمن.. إنها شجاعة مبكرة لهذا الطفل الذى سوف يغير مسار التاريخ الإنسانى كله..

لقد سمع أبو طالب ما قاله الراهب (بحيرا) الذى أولم لهم وليمة .. ولم تكن هذه عادته، فكم من مرة مرت قوافل قريش على الدير الذى يتعبد فيه، ولم يلتفت إليهم، ولم يدعوهم إلى طعام أو شراب.. ولم يكن أبو طالب يؤمن بأن هناك بشرا يمكن أن يأتيه الوحى من السماء، ولكنه خشى أن يصيب ابن أخيه مكروه.. فيقول الناس عنه انه لم يسمع كلام الراهب.. فبعث بمن يعيد ابن أخيه.

* * *

obeikandl.com